

فُكَاهاَت

رِوَايَةُ

— الشرف الصحيح (١) —

كان في احدى مدارس البنات الكلية في باريز فتاة من بنات الأسر الشريفة تدعى ماري وكان ابوها البارون اوكتاف كولان من كبار المتولين قد اشتهر بالاستقامة وحسن السيرة وكان له غير ماري ولد آخر اسمه فريدريك فتوفيت والدتهما وهما طفلان فاعتنى بتربيتهما وتثقيفهما على حب الفضيلة وكرم الاخلاق . وفي بدء الرواية كان فريدريك قد انهى دروسه ودخل في اشغال التجارة مع ابيه واما ماري فكانت لم تزل في المدرسة تلتقط من درر العلوم ما تحلي به جيدها فوق ما جملها به المبدع من حسن الخلق والخلق حتى اصبحت وهي في سن السابعة عشرة آية في الجمال والكمال وكان لماري صديقة من بنات المدرسة يقال لها كلارا وهي ابنة قوم متوسطي الحال عليها مسحة من الجمال وكانت كلارا ترى ما زينت به ماري من الجمال والذكاء وسمو المقام فتحترق حسداً لها الا انها كانت تتظاهر لها بالصدقة والمصافاة فكانت ماري كثيراً ما تخلو بها وتقضي اليها باسرارها ثقةً منها بصحة مودتها . واتفق في تلك السنة ان ماري عند ما رجعت الى

(١) محصلة عن الفرنسية بقلم السيدة لبيبة هاشم

بيت ابيها تقضي فيه زمن العطلة خطبها ابن عم لها يقال له البارون فرنسوا كولان فلما عادت الى المدرسة كان في جملة ما اخبرت به صديقتها كلارا حديث الخطبة فبلغ الحسد من كلارا درجة الجنون وانصرفت الى غرقها والغيرة تنهش فؤادها وقد اضمرت ان تنصب لها من حبائل المكر ما يحرمها سعادة الحياة ويكدر عليها ما هي فيه من موارد الثروة والنعيم وبعد ان مرت تلك السنة وأزف الوقت المعين لتوزيع الشهادات زينت جدران المدرسة بانواع الزهور وتوافد المدعوون فدخلت التلميذات صفوفاً واعتلى المنبر اربع عشرة منهن مرتديات بالحلل البيضاء وكانت ماري من جملتهن فقلت خطاباً وجيزاً أسرت به قلوب السامعين وادهشتهم بحسن معانيها وعذوبة الفاظها وخرج الجميع وهم يثنون على براعتها ويتحدثون بجمالها الفتان وكان اشد الناس استخساناً لها فتى حرفته الحداثة يدعى ألفنس جميل الطلعة حسن البزّة عظيم الثروة لم يرث شيئاً عن والديه سوى الصفات الحسنة والادب الوافر فاحترف صناعة الحديد وبرع فيها فربح الارباح الطائلة ولم يبلغ سن الثلاثين حتى صارت ثروته تعد بالملايين فاحب ماري وحدثته نفسه بطلب الاقتران بها

وعادت ماري الى منزلها وليس ما يشغلها سوى ذكر خطيبها البارون فرنسوا الذي لم يكن يفتر عن التقرب منها والتجيب اليها حتى امتلك قلبها واستولى على عواطفها . ولبثا على تلك الحال مدة ثلاثة اشهر يترقبان السعادة المقبلة غير انه بعد مضي تلك المدة لحظت ماري من خطيبها بعض الفتور اذ اصبحت زيارته نادرة وقصيرة لا تفتح لها مجالاً للعتاب ولا باباً للسؤال

فضاق صدرها وتعاظمت همومها ولا سيما انها رأت والدها واخاها من الممكن
 بامور شخصية غير مبالين بامرها فانفردت بهما تقاسي اشد العذاب
 وفي احد الايام دخل والدها فراها منددة الخد محمرة الجفن فضمها
 الى صدره وقبلها بعد ان سألها عن سبب بكائها فانطرحت على صدره
 تذرف الدموع واجابته بصوت ارجفه التأثر والانفعال اني سيئة البخت
 يا ابتاه . فقال اني شاعر بما انت فيه يا عزيزتي فتجلدي واعلمي ان الذي
 سبب لك هذه الاكدار هو غير اهل لك فانزعي ذكره من فؤادك ولدي
 من هو اليق بك منه وهو شاب حسن الخلال فيه من مكارم الاخلاق
 وسامي الصفات ما يعادل شرف اصلك وعريق نسبك وهو الذي رأيته هنا
 منذ يومين وعرفت بك به باسم الفؤس الحداد فانه احبك حباً لا مزيد عليه
 وجاءني بالامس طالباً يدك فاستمهلته ريثما استطاع رأبك في ذلك
 فأفلتت من بين ذراعيه ورجعت خطوتين الى الوراء واجابته متعجبة
 ماذا تقول يا أبت . انا من سلالة البارون كولان انا ابنة اوكتاف الأخون
 ودي وانكث عهدي وفوق ذلك تريد ان اقترن بصانع خامل وضع . اني
 افضل التبتل على ان اكون امرأة رجل حداد

وبعد مضي اسبوع على هذه الحادثة احتفل البارون بعيد ابنته وكانت
 قد اتمت سنتها التاسعة عشرة وقبل ان يفد المدعوون اتت الخادمة تعلم
 ماري بزيارة صديقتها كلارا فابتهجت لهذه البشري واسرعت بعد ان اتمت
 زينتها لمعانقة صديقتها ورصيفتها في المدرسة واحتفت بها كثيراً ورغبت اليها

ان تقضي السهرة عندها فقبلت دعوتها . ولما اقبل المدعوون انطلقنا الى غرفة الاستقبال وجلسنا على حدة تتبأثن الاشواق وتروي كل منهما للآخرى ما حدث لها مدة الفراق واخيراً انتهى الحديث الى كلارا فاخبرت ماري انها خطبت الى احد الاشراف فسرت ماري وهنأتها بذلك ثم سألتها عن اسم خطيبها فاجابتها « البارون فرنسوا » . ولوأن صاعقة انقضت على رأس ماري حينئذٍ لكان وقعها اخف فاصفر وجهها وارتمت عزائمها فاتكأت على كرسيها وتلك تنظر اليها نظر الظافر اذ يذوق حلاوة الانتصار على خصمه . وادركت ماري ما في ضمير كلارا فتجلدت ولم تفه ببنت شفه . وفي تلك الساعة دخل البارون فرنسوا وكان سبب قدومه انه ذهب لزيارة خطيبته الجديدة كلارا فقبل له انها انطلقت لزيارة صديقتها ماري فاسرع في اثرها حاسباً لالتقاءهما الف حساب . ولما وقع نظره على الفتاتين ادرك المغزى من حديثهما واتضح له من اصفرار ماري وعبوستها انها علمت بغدره وخيائنه فتقدم منكس الرأس وجثا على قدميها يطلب الصفح والمغفرة . فلم تبال به بل نهضت وامرت طرفها بين الحضور حتى عاينت الحداد فسارت نحوه بسكون وقالت له لقد علمت من والدي برغبتك في الاقتران بي فها هنا اصرح لك برضاي واختياري اياك خطيباً لي وهاك يدي علامة لذلك . فاجابها بما اكد لها حبه وشوقه الى الحصول عليها ثم قبل يدها وسارت وياه الى حيث كان البارون وصديقتهما فعرفتاهما بخطيبها الجديد ثم جلست شامخة كأنها لم تتأثر مما حدث او كأنه لم يحدث شيء .

فبهت البارون وتذهبت فيه عوامل الغيرة لانه كان لم يزل يحب ماري

حباً عظيماً ولم يزدْهُ البعدُ عنها والتقربُ من فتاةٍ لا يهواها إلا شوقاً وهياماً :
وكان السبب الذي من أجله اضطرَّ الى العدول عنها هو انهُ خسر جميع
ثروته بالمقامرة وعلمت كلارا بامرهِ اذ كانت لا تفتر عن استطلاع احواله
فاوسعت لهُ سيلاً للاستدانة من ايها الذي كان قد ساعدهُ الحظ مدة
السنتين الاخيرتين فربح باسهم ابتاعها من بعض الشركات التجارية ارباحاً
طائلة ورأى ابنتهُ تميل الى الاقتران باحد الشرفاء وكان هو نفسهُ يتمنى ذلك
ايضاً فاجاب توسلات ابنته وبذل للبارون كل مساعدة وجعل يمدُّهُ بالمال
من وقت الى آخر حتى صارت لهُ عليه ديون طائلة وتعذر عليه قضاؤها
فاصبح ملك يده وطوع امرهِ لان كلمةً منه كانت تكفي لان تشهر افلاسهُ .
وحينئذٍ عرض عليه ان يتنازل لهُ عن القيمة بتمامها بل ينقدهُ اضعافها ان
هو رضي بمصاهرتهِ فاضطر ان يجيب طلبهُ ويترك خطيبتهُ ويبحث بعهوده
وبعد ايام عقد لكلٍّ من الخطيبين على خطيبتهُ وبذلك تم لكلارا ما
تشتهي من لقب بارونة ودخلت ماري بيت زوجها الحداد آسفة حزينة . ولم
يكن زوجها يجهل اسباب حزنها ونفورها منهُ ولكنهُ علل النفس بنيل رضاها
متى رأت منهُ من حسن المعاملة والاحتفاء ما ينسبها حبيبها وعز افتخارها
غير ان ماري لم تمهلهُ ان يتلذذ بتلك الاماني فلما انقضت حفلة العرس
قالت لهُ انك تعلم ولا ريب باني كنت مخطوبة الى ابن عمي البارون فرنسوا
وانهُ غدر بي لسبب لا اعلمهُ فقصدت ان انتقم منهُ واكيل لهُ صاعاً بصاع
فاصطفيتك ممن حضر وجعلتك آلة لانتقامي ولا اخال اني جنيت عليك
فانك قد بدأت بطلي قرينةً لك دون سابق حبٍّ او عهدٍ بيننا مما دلني على

كونك راغباً في ثروتي وانا اهبها لك عن طيب خاطر ولا اريد منك مقابلة
لذلك سوى ان تعتبرني غريبة في منزلك وان لا يكون بيننا شيء من العلائق
والصلات فاني لا اميل الى الحداق والمماذقة بل اقول لك صريحاً اني لا
احبك واخالك تأبى ان تكون زوجاً لامرأة لا تهواك . فحاول الفتي اقناعها
وتغيير عزمها فما كان ذلك الا ليزيدها صلابة ونفارا واخيراً قال لها انك
ستنالين مطلوبك كما تشائين ولكن اعلمي انه يأتي يوم تقرعين فيه سن
الندم وتذرفين دموع التوسلات في حين لا ينفع الندم ولا يرد ما فات

ومرت سنة على اقترانهما دون ان يطلع على اسرار حياتهما احد فكانت
ماري منفردة في الطبقة العليا من القصر وزوجها في الطبقة السفلى لا يلتقيان
الا اذا اضطرهما الحال بوجود زائرين . وكان لزوجها شقيقة بارعة في الجمال
تدعى بلانش تبلغ السادسة عشرة من العمر فكانت تأنس بها ماري وتتخذ
بعشرتها لانها كانت على جانب عظيم من اللطف والتهذيب . وكان اخو ماري
في اثناء ترده على شقيقته يقابل بلانش ويجالسها فآثر فيه جمالها وكمال
اوصافها حتى هام بها واطلع شقيقته على حبه لبلانش وسألها ان تخاطب
زوجها وتقنعه بقبوله خطيباً لشقيقته . فحارت ماري في الامر ولم تدرك كيف
تفاتيح زوجها الخطاب مع انقطاع الحديث بينهما فلبثت بين تردد ومماطلة
الى ان مرت السنة على اقترانهما فاحتفل زوجها الحداد بليلة شائعة تذكراً
لمرور اول عام لزوجها اتباعاً لعادات قومه ودفعاً للظنون والاقاويل
وكانت البارونة كلارا تزورها من وقت الى آخر ولا تنفك في اثناء

زيارتها عن المباهاة بما هي عليه من الرفاهية ورفعة المقام كأنها تظهر لماري
خمولها وحقارتها امام مجدها الرفيع وعزها المنيع . ولم تكن ماري تبالي
بثروتها او تظهر استياء من زياراتها فزاد ذلك في حنق البارونة وجعلت
تبحث عن وسائل أخرى تكيدها بها ومنذ ذاك شرعت تنصب الاشراك
لزوجها بغية ان يسقط في فخ هواها مستعملةً لذلك ما امكنها من الحركات
والنظرات المؤثرة مما نبه غيره ماري واثار غيظها فعزمت ان تجعل لغورها
حدًا لانه لم يعد بها قوة على الصبر فباتت تترقب الفرص لذلك

وفي ليلة الحفلة دخلت ماري الى غرفة الاستقبال حيث كان زوجها قد
سبقها وجلسا ينتظران وفود المدعوين . وفي تلك الفترة قالت ماري لزوجها
اروم مشافهتك بامرٍ ذي بال . فقال تكلمي يا سيدتي فاني مستعدٌ لسماحك .
قالت ان حديثي يتعلق بشخصين يهمننا امرهما وقد تتوقف سمادتهما على كلمة
منك . وذلك ان اخي يودّ الاقتران بشقيقتك بلانش وهما يحبان بعضهما
بعضاً حباً شديداً ويريان في اتحادهما كل الهناء والسعادة فاسألك يا سيدي
ان توافق على قرانهما ولك منهما ومنى الشكر الجزيل . فقال اني آسف لكوني
مضطراً ان ارفض طلبك يا سيدتي فيكفي ما انا فيه من الشقاء بتقربي
من أسرة كولان فلا اريد ان تنال شقيقتي نصيباً منه . وبهذا الجواب
أفحمت ماري ولم تجد وجهاً للجواب او الاعتراض فخرجت مبتئسة تندب
سؤ حظ اخيها

ثم توافد المدعوون وفي جملتهم البارون وقرينته كلارا وقد دخلت
تهادى كالطاووس وتهز كتفها الباريتين زهواً وافتخاراً وقد جعلت على

هامتها من الحلى الثمينة ما يستلفت الابصار . فقابلها صاحب الدعوة بما لاق
من الاكرام وفسح لها مكاناً في صدر الردهة حيث جلست ودعته الى
الجلوس بجانبها وما زالت تورد على مسامعه الاحاديث المتواصلة والاخبار
المتتابعة بحيث لم تبق له مجالاً للانفصال عنها فمضى قسم عظيم من السهرة
وهما على تلك الحال وماري تلحظهما من بعيد بعين قد ادمتها الغيرة ونفس
ازهقها السكوت واخيراً نهضا للرقص وامتزجا بالمتخاضرين فلم يبق بوسع
ماري ان تصبر فانطلقت الى ابن عمها البارون وأمرته ان يخرج مع امرأته
من منزلها . فلم ينبس البارون بكلمة بل استدعى زوجته والحداد واعاد عليها
كلمات ماري ثم سأل الحداد بصفة كونه رب المنزل هل يوافق على مقال
زوجته ويسمح باهاتها لهما على هذه الصورة . فاجابه ان المنزل يختص
بقرينتي وهي صاحبة السيادة والحكم فيه دون سواها فليس لي ان اعترضها
في شيء . فاجابه البارون بحدة اني اعتبر قولك اهانة لي لا يمحوها الا الدم .
فقال ما عليك الا تعيين مكان المبارزة ووقتها واختيار السلاح . قال غداً
الساعة السادسة في غابة بولونيا ونستعمل الغدادة لانها اسرع من غيرها
في اطفاء الغليل . قال ذلك وخرج مع زوجته مغضبين لا يلويان على شيء
وعاد الحداد الى مدعوّيه يحدثهم باشياً كان لم يحدث شيء
اما ماري فكانت مضطربة الى حد انها لم تتمكن من اخفاء ضمائرهما
فانفردت في احدى الغرف تعيد في ذهنها ما جرى فشق عليها ما سيحصل
من المبارزة بين زوجها وابن عمها بسببها ولكنها سرّت بما نالت بواسطة
زوجها من قهر عدوّتها وطردها من منزلها كما تطرد الكلاب

وبينا هي كذلك اذ دخل اخوها فريدريك وسألها عما كان من زوجها في شأنه . فاطرقت بنظرها ولم تُحرّج جواباً فكرر عليها السؤال وقد قلق باله لما رأى من انقلاب هيئة شقيقته وتنهدها العميق فقالت له تجلد يا عزيزي ولا تدع الغم يتغلب على قلبك فانك تجد احسن من بلانش اضعافاً . فما كانت كلماتها الا لتزيد آلامه ولوعته فهب من مكانه آتساً حزيناً وجعل يخطو في الغرفة طويلاً وعرضاً وعيناه مغرورتان بالدموع . ثم التفت الى الخارج فرأى حبيبته تتمشى بين الجمع المحتشد وعيناها تبحثان في جميع الجهات كأنها تنشد ضالة فقال اوّاه يا بلانش يا حبيبتي لقد فقدتك الى الابد ولم يبق لي في الحياة مطمع وماذا عسى ان ارجو بعد ضياع الثروة والشهرة والرفعة والحبيبة وكل ما تعزّز به النفس ويتهيج به الفؤاد

فهب ماري من مكانها مذعورة وقالت ماذا تعني بضياع الثروة . فارتعش فريدريك كأنه قد مسّه سلك كهربائي وندم على ما صدر منه من الكلام عن غير انتباه واراد ان يموء عليها بالحديث فلم يُجِز عليها تمويهه وألحت عليه ان يصدّقها الخبر فاجاب طلبتها وجلس واياها متحاذين ثم قال اعلمي يا شقيقي اننا فقدنا ثروتنا بتمامها لان والدنا خسر خسارة فادحة في اسهم اشتراها من شركة بناما في العام الماضي قبيل زواجك وقد بذل كل ما كان عنده من الملايين فلم تكن كافية لسدّ الدين فكاد يسقط اسمه ويشتهر افلاسه لو لم يتداركه زوجها بالمساعدة المالية فوفى ما كان باقياً عليه من الديون وحفظ اسم اسرتنا من السقوط . فقالت وهل كان ذلك المبلغ يزبو على البائثة (الدوطة) التي اخذها عند زفاني . فمز رأسه وقال

وأي بائنة . . . انه لم يأخذ شيئاً من المال بل لم يتقدم لطلبك إلا بعد علمه بما صارت اليه حالنا من الناقة فاقترن بك فقيرة ودفع نفقات جهازك وما زال يشملنا باحسانه حتى أصبحنا السنة تنطق بشكره ولم نكتم عنك هذه الامور الا مخافة ان نحزنك على غير طائل

عندئذ جمد الدم في عروق ماري وتصبب العرق من جبينها وحاوت الكلام فلم تستطع ثم سقطت الى الارض مغنى عليها فاسندها اخوها الى صدره ودعا زوجها لمساعدته على تنبيهها فاسرع الفتى وبذل الجهد في معالجتها بالماء والارواح العطرية الى ان استفاقت والاحال اسرع بالخروج خوف ان يثقل عليها وجوده . ولم تكن تلك اول مرة اظهر عنايته بها بل كثيراً ما خدمها بنفسه حينما لم يصححتها انحراف ولطالما قضى ليالي وهو ساهر يقرب سريرها يراقب احوال المرض ويعاون الممرضة لها وحين تعود اليها العافية يتوارى من امامها دون ان تدري بحضوره.

وبعد ان استراحت قليلا صعدت الى مخدعها متكئة على ذراع شقيقها واعتذر زوجها الى مدعويه عن عدم حضورها لانحراف صحتها وعند الساعة الثانية بعد نصف الليل ودع القوم وانصرفوا شاكرين

ودخل الحداد غرفته فجلس على متكأ يفكر في امر المبارزة وبودّه لو يقابل قرينته قبل ذلك فيظهر لها فساد اعتقادها فيه ويثبها حبه ويؤكد لها اخلاصه اذ كان يخشى ان يقتل بيد خصمه فلا يعود يراها فيما بعد . وهكذا تمكنت منه تلك الافكار وقويت فيه عاطفة الحب فصمم على مفاتها صباحاً في الامر ثم جلس الى مائدته يكتب وصيته الاخيرة فخص

قرينته بكافة امواله ما عدا مبلغاً زهيداً عينه لشقيقته بلانش . ولما انتهى من تلك الاسطر سمع صوت خطوات ماري تذهب وتجيء في مخدعها وكان فوق مخدعه تماماً فعلم انها لم تنزل يقظي ولحظ من تمشيها انها مضطربة الافكار لا تستقر على حال

وبالحقيقة ان ماري لم يغمض لها جفن كل ذلك الليل بعد الذي سمعته من اخيها وما زالت تردد كلامه في ذهنها متعجبة من معاملة زوجها وكتمانه الحقيقة عنها مع كل ما ابدت له من الجفاء والاحتقار فتبدل اعتقادها به وتاكدت لديها رفعة منزلته وعزة نفسه فعزمت على ان تسير اليه وتنطح على قدميه تشكره على حسن فعاله وتطلب منه صفحاً غير انها لم تبلغ الردهة الخارجية حتى عادت القهقري وجعلت تسير في مخدعها ذهاباً واياباً وتارة تقف وطوراً تجلس واخيراً رأت أن لا بد من ذهابها اليه في الحال قبل ان يدنو ميعاد المباراة فشددت عزمها ونزلت الى الطبقة السفلى واقتربت من مخدعه ولكنها لم ترفع يدها لقرع الباب حتى خارت قواها وتحاذلت ركبتها فكدت تسقط الى الارض ولبثت هنيهة وهي تذرف العبرات واخيراً رجعت أدراجها اذ لم تقوَ على الدخول . وسمع الفنس صوت خطواتها وشعر باقترابها من باب غرفته فوقف ينتظر قدومها وقد خفق قلبه تأثراً وانفعالاً ولكن ما عثم ان خابت آماله وسمعها عادت من حيث اتت فتأوه حزناً وجعل يودعها عن بعد بكلمات يرق لسماعها الجلود ثم تقلد سلاحه ونظر الى ساعته فاذا هي الساعة الخامسة وحينئذ سمع قرعاً على الباب ففتحه واذا باحدى خادمت ماري تدعوه لمقابلتها . فصعد اليها

ثابت الجأش ولما التقت العين بالعين لحظ كل منهما اصفرار وجه الآخر
 واثرا الدمع في عينيه . فسألها عما تريد ولما هممت ان تجيبه خنقتها العبرات
 فجثت على قدميه طالبة صفحاً فجثا الى جانبها وطوقها بذراعيه ولبثا حيناً
 على تلك الحال لا يسمع منهما سوى زفير وشهيق واخيراً اطلعتة ماري على
 كل ما سمعته من اخيها اتفاقاً وظهرت له ندمها على ما فات ووعدته
 بالعدول عن خطتها الماضية . فشكرها وكفكف دموعها بلطيف عباراته .
 ثم همّ بالانصراف اذ سمع صوت الشاهدين وقد حضرا لمرافقته . فتمسكت
 باذياله وجعلت تتوسل اليه في العدول عن المبارزة فاقنعها بوجوبها حفظاً
 لكرامته وانجازاً لوعده والافيعد نذلاً جباناً فتركته مضطرة

وعند حلول الساعة السادسة التقى الخصمان في ساحة القتال وصوب كل
 منهما غدارته نحو خصمه ثم اعطيت الاشارة من احد الشهود فاطلق
 الخصمان غدارتيهما في آن واحد وللحال علا صوت ماري متألماً فنظرا واذا
 بها واقفة بينهما رافعة يدها وقد اخترقتها رصاصة من غدارة ابن عمها . فابطلا
 النزال واسرعا اليها متأثرين مما اصابها ولا سيما زوجها الذي ذاب قلبه
 التيعاً وتأثراً اذ رآها خاطرت بنفسها لتقيه رصاص خصمه . ثم هدا اضطرابهما
 لما اعلمهما الطبيب بعدم وجود خطر عليها

فاحتماوها وعادوا جميعاً وتصافح الخصمان وزالت من قلوبهما الضغينة
 وبعد ايام شفيت ماري ورضي زوجها بزفاف شقيقته الى اخيها وعاشوا
 جميعاً بالصفاء والهناء